

دعوة الرسل

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۚ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ قَالُوا إِن أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاقْتُونَا بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُم إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿٦﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٧﴾ مِّن وَّرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿٨﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ۖ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَّرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٩﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلِيلُ الْبَعِيدُ ﴿١٠﴾ (إبراهيم: ٩-١٨).

الالتفات من أسلوب القرآن البلاغي :

هل هذه الآيات تكملة وتتمّة لخطاب موسى لقومه ، أم هي بيانٌ استثنائي ، أو ما يُسمّيه علماء البلاغة : التفاتاً لموضوع جديد؟!

بعض المفسرين مالوا إلى أنه من تتمّة كلام موسى . والبعض قال : لا ، هو كلام جديد .

وأنا مع هذا القول الثاني ؛ فقد انتهى كلام موسى ، وبدأ القرآن في خطاب جديد للمشرّكين ، بدليل أن الخطاب لقوم يكفرون بالله ، ويكفرون بالرسول . وقوم موسى ما كفروا بالله ، ولا برسولهم ، هم يقولون : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ ، مما يدلُّ على أنهم كفرة ومُكذِّبون .

حثُّ القرآن على الاعتبار بالتاريخ والسَّير في الأرض :

فهو ابتداء كلام من جديد ، يوظّف فيه التاريخ لخدمة الرسالة ، والتاريخ مخزّن العبر ، وذاكرة الأمم .

والقرآن يحثُّ دائماً على الاعتبار بالتاريخ ، تاريخ الماضين ، هو مدرسة نتعلّم منها ، ونستفيد منها الدروس دائماً ، ولذلك يقول الله سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل: ٦٩) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(غافر: ٨٢) .

فهو يطلبُ منا أن نسيرَ في الأرض ، نرحلُ مُشْرِقِينَ وَمُغْرِبِينَ ، وننظر في آثار الأمم ونستفيد منها .

مصيرُ الأممِ المُكَذِّبَةِ :

الأمم التي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ ، وَعَصَتْ رُسُلَ اللَّهِ ، وَاتَّبَعَتْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ ، ورفضت التوحيد . ماذا كان مصيرها ؟

التاريخ يُحَدِّثُنَا أَنَّ مصيرها كان هو الهلاك ، فهو هنا يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، النبأ : هو الخبر ذو الشأن . وهذه أخبار لها شأن ، لأنها تتعلَّقُ بِأُمَمٍ صَدُّوا عَن رُسُلِ اللَّهِ ، ووقفوا ضدَّ الرسالة .

الله سبحانه وتعالى من لطفه وفضله ورحمته وحكمته لم يدع الناس هملاً ، ولم يتركهم سدى ، بل أرسل إليهم رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَمُنَبِّهِينَ وَمُعَلِّمِينَ : ﴿ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥) .

حاجة العقل البشري إلى هداية الوحي :

كان الناس في حاجة إلى مَنْ يأخذ بأيديهم ليعرفهم ما يُحِبُّ اللهُ وما يكرهه ، وما يرضاهُ وما يَسْخُطُه ، لم يكتفِ بالعقل وحده ، لأنَّ العقل وحده قد يضل الطريق ، قد لا يهتدي إلى سواء السبيل .

رأينا كبار الفلاسفة يقعون في أخطاء كبيرة ، حتى لا يعرفون حقَّ الله عزَّ وجل ومقام الله جلَّ جلاله .

أكبر فلاسفة اليونان (أرسطوطاليس) يقول : (إنَّ الله لا يعلم في الكون شيئاً ، ولا يحلُّ فيه ، ولا يعقد ، ولا يدبِّر فيه أمراً ، الله لا يعلم إلا ذاته ، إنما هذا اسمه عالم الكون ، والفساد لا يعلم فيه شيئاً) .

حتى إن مؤرخ الفلسفة - مؤرخ أمريكي مشهور - أرخ للتاريخ في كتاب شهير اسمه : (قصة الحضارة)^(١)، وله كتاب آخر اسمه : (مباهج الفلسفة) .

يقول في (مباهج الفلسفة) : (يا لإله أرسطو من إله مسكين ، إنه لا يعمل في الكون شيئاً ، ولا يُدبر فيه أمراً ، إنه مثل ملك الإنجليز يملك ولا يحكم) . فهذا إله أرسطو لا يعرف شيئاً في هذا الكون إطلاقاً . وهناك فيلسوف ثان اسمه (أفلوطين) - إذا كان إله أرسطو لا يعرف إلا نفسه ، فإنه أفلوطين لا يعرف نفسه .

هؤلاء فلاسفة كبار ، ولكنهم انحدروا إلى هذا المستوى من الفهم لمقام الله عز وجل !!

ومن هؤلاء الفلاسفة من يقول بفلسفة اللذة ، ومن يقول بفلسفة المنفعة ، ومن يقول بفلسفة القوة ، ومن يقول : إن الإله مات والإنسان عليه أن يفعل ما يشاء - (نيتشة) وغيره من الفلاسفة - واختلف بعضهم مع بعض وناقض بعضهم بعضاً ، هذا يُثبت ، وهذا ينفي ، وهذا يُحق وهذا يُبطل ، حتى قال أحد أساتذة الفلاسفة : (إن الفلسفة لا رأي لها ؛ لأنها تعطي الشيء ونقيضه) هذا يقول شيئاً ، والثاني يقول بخلافه تماماً .

ولذلك كان الناس في حاجة إلى شيء يعين العقل ، لأن العقل وحده لا يستطيع أن يهدي الإنسان سواء السبيل .

رأينا العرب في جاهليتهم هداهم العقل إلى أن يئدوا البنات : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُلِّتَ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩) ، وقتلوا الأولاد من إملاق ، أو خشية إملاق - بنين وبنات - إما من فقر واقع ، أو خوف فقر متوقع !

(١) هو كتاب موسوعي تاريخي ، من تأليف الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي (وول ديورانت) ، ويتكوّن من أحد عشر جزءاً ، يتحدث فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية ، منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر ، وقد ترجم الكتاب إلى العربية وأصدرته المنظمة العربية للعلوم .

رأيانهم يفعلون هذا ، ورأينا الأمم تفعل أشياء غريبة جداً ، لهذا كان الناس في حاجة إلى رسالة ، إلى وحي من الله عز وجل ، الوحي هذا يرشد العقل إذا انحرف ، ويهديه إذا ضل ، ويصوبه إذا أخطأ .

خطأ الحواس وتصحيح العقل لها :

هناك هدايات عدة : هداية الحواس ، الله سبحانه أعطانا الحواس الخمس : البصر ، والسمع ، والشم ، واللمس ، والذوق . هذه الحواس الخمس قد تُخطئ ، ما الذي يُصحح خطأها ؟ العقل ، يعني أنت قد تنظر إلى النجم في السماء فيتهياً كالكرة العاتية .

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَاهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغْرِ^(١)
فهذه النجمة التي في عينيك صغيرة ، هي أكبر من الأرض بملايين المرات ، عشرات الملايين ، مئات الملايين ، علم الفلك والرياضيات وحساب الرياضيات أوصلهم إلى هذا .

يمكن أن ينظر أحدنا إلى الظل فيراه ساكناً - حسب البصر - الظل ساكن ، بعد دقائق الظل تحرك ، إذن لم يكن ساكناً ، هو يتحرك ببطء ، ولكن البصر لا يراه .

يمكن للبصر أن يرى في الصحراء السراب يحسبه ماءً ، حتى إذا أتيت الموضع الذي رأيت فيه ماء لم تجد عنده ماء ولا شيئاً ، ﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (النور: ٣٩) . فهذا البصر هو أقوى الحواس يمكن أن يخدعك ، ما الذي يُصحح خطأ الحواس ؟ العقل .

فإذا أخطأ العقل ما الذي يصححه ؟ الوحي ، فالوحي نور على نور ، زيادة على نور الفطرة ، ونور العقل ، كان نور الله بالوحي .

(١) من شعر : أبي العلاء المعري .

عجائب الطاقة الإنسانية :

وليس بعجيب أن يُوحى الله إلى البشر ، ما العجيب في هذا ؟! ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (يونس: ٢)، ما العَجَب في هذا ؟!

العَجَب أن يكون الإنسان عنده قدرة على أن يتلقى وحي الله ! الإنسان أعطاه الله طاقات عجيبة ، بعض الناس عنده طاقة جسميّة يحمل مائتين وستين كيلوجراماً ، ناس عندهم قدرات أخرى ، كالذي يجرّ سيارة بأسنانه . طاقات عجيبة في الإنسان ، ولعلكم رأيتم بعض هذه الأعاجيب .

الأستاذ أحمد حسين ألف كتاباً سمّاه : (الطاقة الإنسانية)^(١) ، وذكر من عجائب الطاقة الإنسانية الشيء الكثير ، فما الذي يدهش الإنسان أن تكون عنده طاقة رُوحية ، يستطيع أن يتلقى بها كلام الله ، ووحى الله عزّ وجلّ ، أو من ناحية الربوبية ما الذي يعجز الله أن يخاطب الإنسان بكلام يسمعه إياه؟ ليس هذا بعجيب .

نعمة إرسال الرسل وموقف أقوامهم منهم :

فإرسال الرسل نعمة من الله عزّ وجلّ ورحمة منه ، وهي تدلّ على تمام حكمة الحكيم ، الذي يريد أن يوصل الهداية الكاملة إلى الناس ، فلم يكتف بعقولهم وحدها ، ولا بضمايرهم وحدها ، ولكن أرسل لهم الوحي : النبوة ، الرسالة .

هؤلاء الرسل جاءوا إلى أقوامهم ، ولكن للأسف نرى كثيراً من الأقوام كذبوا الرسل ، ومن هنا كان هذا الخطاب : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، أما جاءكم أخبار هؤلاء الأقوام ، وكيف وقفوا ضدّ الرسل الذين أرسلهم الله لهم ، وكذبوهم ؟!

(١) كتاب يبحث في إثبات الوجود الغيبي وما وراء المادة ، ويعيب على الماديين غرورهم ، ويضرب الأمثلة للهفوات والأخطاء التي وقع فيها علماء المادة .

قوم نوح : ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَرِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (نوح: ٢١) .
 وعاد قوم هود : ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود: ٥٩) .
 وقوم فرعون : ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هود: ٩٧) .
 كَذَّبَ هؤلاء الرسل ، ألم يأتكم نبؤهم؟ نبؤهم فاضت به الأخبار ، وعرفه
 القاصي والداني ، خصوصاً هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه .

الاستفادة من تاريخ الرسل وأممهم :

قوم نوح هم الذين أغرقهم الطوفان ، وقصة الطوفان معروفة عند البشر جميعاً ،
 ولذلك يعدُّ سيدنا نوح أبا البشرية الثاني ، لأن آدم يعدُّ أبا البشرية الأول ، ونوحاً
 أبو البشرية الثاني : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصافات: ٧٧) .
 فقوم نوح جاء الطوفان فأغرقهم ، وكذلك عاد وثمود ، وقصَّتْهم على وجه
 الخصوص معروفة عند العرب ؛ لأنَّ كلاً من عاد وثمود هم قوم من العرب ،
 يسمُّون العرب البائدة ، الذين بادوا ، ودرست آثارهم ، ولذلك يقول الله تعالى :
 ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٣٨) ، تمرُّون
 على مساكنهم .

عاد كانوا في الأحقاف : ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾
 (الأحقاف: ٢١) .
 في جنوب الجزيرة هناك إقليم اسمه إقليم الأحقاف حتى الآن ، وثمود في
 مدائن صالح ، مَنْ يذهب إلى تبوك يمرُّ بمدائن صالح .
 والنبِيُّ عليه الصلاة والسلام هو والصحابة لما ذهبوا في غزوة تبوك مرُّوا بحِجْر
 ثمود ، وقال النبي ﷺ : « لا تدخلوا على هؤلاء المُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ
 لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ ، لَا يَصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ »^(١) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٣٣) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠) ، كما
 رواه أحمد (٤٥٦١) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١٢٧٤) ، عن ابن عمر .

﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٣٨) ، ولذلك قال الله تعالى في أواخر هذه السورة : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم: ٤٥) ، فهو يُذكرهم بهذا التاريخ ، لا بد أن يستفيدوا من تاريخ الأمم وتاريخ الرسل .

القوم المهلكون :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾

قوم نوح أهلكهم الطوفان ، وثمود قوم صالح أهلكوا بالصيحة ، وعاد قوم هود أهلكهم الريح : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴿ (الحاقة: ٥-٧) .

والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله :

هناك قوم إبراهيم ، وهناك قوم لوط ، المؤتفكات أو المؤتفكة ، الذين جعل الله قريتهم عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود .

وهناك قوم مدّين ، وهناك قوم فرعون ، كل هؤلاء جاءوا من بعد عاد وثمود : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، كناية عن أقوام كثيرين ، وليس من شأن القرآن أن يعنى بتفصيل هؤلاء ، لأن المهم هو العبرة .

فالذين كذبوا رسلهم وعصوا ربهم ماذا كان مصيرهم؟ كان مصيرهم العذاب والهلاك ، هلكوا لم تُغن عنهم حصونهم من الله شيئاً ، لم تُغن عنهم قصورهم ، لم تُغن عنهم قوتهم : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا مَجْحُودِينَ ﴾ (فصلت: ١٥) .

الرسل سفراء عن الله عز وجل :

﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

الرسلُ جاءتهم بالبيّنات ، وهي الآيات البيّنات التي تدلُّ على صدقهم ، وصحّة نبوّتهم ، وأنهم لا يُمثّلون أنفسهم ، وإنما يُمثّلون الإرادة الإلهيّة .

الرسولُ هذا بمثابة سفيرٍ يُمثّل السماء في الأرض ، كما نرى في عصرنا ، السّفراء يُمثّلون دولهم ، وأي سفير يأتي إلى دولة - لكي تعرف الدولة أنّ هذا جاء من البلد الفلاني ومن الدولة الفلانية - لا بد أن يقدّم أوراق اعتمادها التي تدلُّ على أنه يُمثّل هذه الدولة ، والرسلُ حينما يأتون يقولون : نحن جئنا من قِبَلِ الله سبحانه ، رسل مبعوثون من عند الله . نقول : ما الدليل على هذا ؟ ﴿ فَأْتِ بِعَاقِبَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیۡنَ ﴾ (الشعراء: ١٥٤) ، فلا بد أن يأتي بالآيات البيّنات التي تدلُّ على أنه مبعوث العناية الإلهيّة ، وأنه لا يتكلّم من عند نفسه ، وإنما يتكلّم بوحيٍ من ربّه .

مجيء الرسل بالآيات الواضحات :

فكلُّ رسول معه من الآيات البيّنات ما يدلُّ على صدقه ، وهي قد تكون معجزة - آية خارقة - يحيي الموتى ، يبرئ الأكفم والأبرص ، أو العصا تنقلب حية ، وقد تكون شيئاً آخر . . . إلخ .

سيرته نفسها تدلُّ على صدقه ، القرآن لم يقل : أرسلنا رسلنا بالمعجزات ، ولكن قال : بالبيّنات أو بالآيات ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِعَاقِبَتِنَا ﴾ (هود: ٩٦) .

الآية والبيّنة : العلامة الدالّة على صدق الرسول ، وقد تكون آيةً حسيّةً كونيّة خارقة ، وقد تكون آيةً أخلاقية . قد تكون دلالة من الدلالات التي تدلُّ على أنّ هذا الرجل صادق وليس كاذباً ، ليس مزيفاً في دعواه .

وقد تكون البينات : العقائد والمناهج والأحكام . جاءوا بأحكام بيّنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ (التوبة: ٣٣) ، هذه من البينات ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (الحديد: ٢٥) ، فالبينات إما الآيات الدالة على الصدق ، أو المناهج الإلهية التي تهدي البشر للتي هي أقوم .

موقف الأقوام المكذبة من دعوة الرسل :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾

رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ . هذه الضمائر لِمَنْ ؟ هل هم الذين أُرسل إليهم الرسل ، هؤلاء الأقوام ، رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، يعني وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ؛ لأنهم كانوا يضحكون استهزاءً بالرسل ، فخشية أن تبدو دواخل أفواههم يضع يده حتى يداري على فمه . هذا احتمال .

أم الذين رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، أو وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ ، هؤلاء الكفار ، في أفواه الرسل ، يعني يسكتونهم : اسكُتُوا اسكُتُوا . كما قال الله تعالى عن قوم سيدنا نوح : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْٓءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح: ٧) ، أي : لا نريد أن نراك ، ولا أن نسمع صوتك ، ﴿ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ لماذا ؟ حتى لا يروه ، ووضعوا أيديهم في آذانهم حتى لا يسمعه ، فكان هؤلاء يردُّون أيديهم في أفواههم : يعني يسكتونهم ، يضعون أيديهم في أفواههم ؛ لإسكاتهم ، مبالغة في الإعراض عن دعوة أنبياء الله تعالى ورسله .

هل هذا لا بد أن يحدث بالفعل ، أم هو كناية عن السكوت والإعراض ؟

القرآن يستعمل الكنايات ، كأن يقول : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٢٧) ، ليس من الضروري أن يعض ،

إنما هذا كناية عن الندم ، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٢) ، هذه كناية عن الحسرة ، فقد تكون هذه كنايات .

الجمود العقليّ للوثنيين :

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾

انظر إلى هذا الصُّدود ، إلى هذا الإعراض والاستكبار والجمود العقلي ، الذي تصيب به الوثنيات الإنسان ، ويصيب به الشُّرك عقلَ الإنسان .

الإنسان المشرك يُصاب بَلَوَّةٌ في عقله ، فلا يُمَيِّز بين الحقِّ والباطل ، ولا يُمَيِّز بين النور والظلام ، ولا يفرِّق بين الهدى والضلال ، يقولون : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ ، جاءوهم بالهدى ، جاءوهم بالبينات ، جاءوهم بالحقِّ الواضح الذي قامت الدلائل على صحته ، فقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ .

هل هم يؤمنون بأنهم أرسلوا ، يقولون : ﴿ كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ ؟ هم لا يؤمنون بأنهم أرسلوا ، فكيف يقولون : بما أرسلتم به؟! هذا من باب السُّخرية ، من باب الاستهزاء ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ آلَ الذِّكْرِ الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر: ٦) .

كيف يقولون : إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . ويقولون : نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ؟! - يعني هذا من باب الاستهزاء : الذي زعم أنه نُزِّلَ عليه الذكر ، فهم يقولون : ﴿ أُرْسِلْتُمْ ﴾ أي : زعمتم أنكم أرسلتم .

﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

الشك الموقع في الرِّيبة والحيرة ، ممَّا تدعوننا إليه من العقائد ، ومن الشرائع ، ومن الأخلاق ، ومن السُّلوكيات ، نحن في شكٍّ من هذا كله ، وشكٌّ شديدٌ موقع في الريبة .

دلائل الفطرة على وحدانية الله وقدرته :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

فيم الشك؟ في الله ، أتشكّون في الله ، أفي الله شك؟! الفطرة تنادي بأن هناك ربّاً خلَقَ الإنسان وخلق الكون وَوَهَبَ الحياة : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؟! هذه المخلوقات من فوقكم ومن تحتكم ، من الذي خلقها؟ هو الله الذي فطرها ، ابتدأها ، أحدثها ، هو خالق السماوات والأرض ، هذه من أدلّ الدلائل على وجود الله ، وعلى وحدانيّة الله ، وعلى قدرة الله ، وعلى حكمة الله : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وفي هذا يقول أبو العتاهية :

فيا عَجَبًا كيف يُعصى الإله أم كيف يُجْحَدُه الجاحدُ
ولله في كلِّ تحريكَةٍ وفي كلِّ تسكينَةٍ شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فاطر السماوات والأرض هو الله كيف تشكّون فيه؟ وقد أرسلنا إليكم لمنفعتكم ولمصلحتكم ، الله لا يناله نفعٌ إذا آمنتم ، ولا يناله ضرٌّ إذا كفرتم ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٨) .

حاجة الإنسان إلى المغفرة :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

هذه الرسائل - الرسالات والدعوات - من الله جاءت لمصلحتكم ، ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، الله بعثنا لندعوكم باسمه .

﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ، معنى هذا : أَنَّ الإنسان بطبيعته خطاء ، ولا بد أن يقع في المعاصي ، ولهذا كان كلُّ إنسان في حاجة إلى المغفرة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣) .

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (الحديد: ٢١) ، قبل الجنة : المغفرة .

الإنسان في حاجة إلى المغفرة : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصف: ١٠-١٢) ، فالمغفرة قبل كلِّ شيء .

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ، أي : يدعوكم إلى التَّوْحِيد ، والإيمان بالنبوة ، والإيمان بالآخرة ، وإلى عبادته سبحانه ، يدعوكم إلى هذا ليغفر لكم ، يدعوكم إلى أسباب المغفرة من الإيمان والعمل الصالح .

سرُّ التعبير ب (مِنْ) في قوله سبحانه : ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ :

﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ، أحياناً يقول : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ، مثل آية الصف ، وأحياناً يقول : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ (الأحقاف: ٣١) ، ليشير إلى أَنَّ هناك من الذنوب ما لا يُغْفَر مثل الشرك : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨) ، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦) .

التأخير إلى أجل مُسمًى :

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، ليعطيكم فرصة ، ليمهلکم مدّة من الزمن ، فلا يعاجلكم بالعذاب ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولكنه لا يهمل ، يملي للناس ، يعطيهم فرصة بعد فرصة ، ليراجعوا أنفسهم ويتداركوا أمرهم ، لا يعاجلهم بالعذاب ، يؤخر العذاب إما في الدنيا ، وإما يؤخر إلى الآخرة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ^٤ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

(إبراهيم: ٤٢) .

كما قال سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ^٥ ﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ^٦ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح: ٤٣) .

يؤخركم لوقت مُحدّد عنده ، وهو يعرف إذا جاء هذا الوقت نزل عذابه ، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح: ٤) .

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، هكذا قالت لهم رسلهم ، فيماذا ردّ عليهم هؤلاء الأقوام؟

﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠)

حواجز مُصطنعة :

ذكروا ثلاثة حواجز :

١- الحاجز الأول قولهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ . وهذه قضية - للأسف - متكررة ، البشر في كلّ أحقاب التاريخ ، ومع مواكب النبوة يذكرون هذه

الدعوى ، يدعون على الرسل أنهم بشرٌ مثلهم !! وهذه هي الحكمة الإلهية ،
لا بد أن يكون الرسل بشرًا مثلنا .

إذا بعث الله لنا ملكًا كيف نقتدي بالملك؟! هو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتزوج
ولا ينام ، ولا يخطئ ولا يعصي ، كيف يكون لنا أسوة؟!

الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨) ، أي : من جنسكم ، ولذلك يقول الله تعالى :
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾
(الأنعام: ٨) . الملك لا ينزل إلا بالعذاب : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩) ، إذا نزل ملك كان لازمًا أن يكون في
صورة رجل ؛ حتى يستطيع أن يعيش مع الناس ، وأن يكلمهم ويسايرهم
ويعايشهم ، وإذا قلبناه رجلًا انتهت العملية وأصبح بشرًا .

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٥) ، أي : واحد منهم ، أما أنتم لستم ملائكة ،
فكيف نُنزل عليكم ملائكة ، فمن العَجَب أن يقول الناس : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤) .

الحكمة تقتضي أن يُنزل الله بشرًا رسولاً ، كان المفروض من البشر أن يعتزوا
ويفتخروا بأن الله أرسل منهم رسلاً يخاطبونهم ، وينزل عليهم وحيه ، هذا موضع
عزة للبشر ، وكرامة لهم ، ولكن للأسف الجحود والشرك والكفر يطمس على
العقول ، فلا تعي ولا تميز .

فهذا أول حاجز حَجَزَهم عن أتباع الرسل : أنهم بشر مثلهم .

٢- الحاجز الثاني : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ، لم
يفكروا يوماً ، ما الذي يعبد آباؤهم؟! هل هو شيء يستحق العبادة؟! هل هذه

الأصنام التي لا تُبصر ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع ،
ولا تهدي سبيلاً ولا تتكلم ، هل هذه تصلح آلهة ؟!

الإنسان يصنع الصنم - ينحته بيده - ثم يعبد ، كما قال سيدنا إبراهيم :
﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصفات: ٩٥) ، صنم تنحتونه وتصورونه ، وتعملون له
أنفاً ووجهاً ، ثم تسجدون له وتعبدونه ، وتطلبون منه الرزق ، وتطلبون منه الشفاء ،
أهذا هو العقل ؟! الشرك أضل الناس ، فلم يفكروا في هذه المعبودات .

التقليد الأعمى :

﴿ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ، هكذا قال قوم هود لهود : ﴿ قَالُوا
أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (الأعراف: ٧٠) .

وهكذا قال قوم صالح لصالح : ﴿ أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (هود: ٦٢) .
وكذلك قال قوم شعيب لشعيب : ﴿ أَصَلُّوْا لَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ (هود: ٨٧) .

وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّاءَ وَجَدْنَا عَلَيْه
ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٧٨) .

وهكذا ردَّ كل الأقوام المكذِّبين للرسل هذه المقولة : ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ .

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣) ،
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۖ أَوَلَوْ
كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠) ، ﴿ قُلْ أَوَلَوْ
جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾
(الزخرف: ٢٤) ، هكذا قال أقوام الأنبياء ، الحجة العقلية ليس لهم فيها نصيب ،
لا يطالبون باستخدام العقل ، العقل معطل عند هؤلاء .

٣- الحاجز الثالث : ﴿ فَاتُّوْنَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ، إنهم يريدون آيةً كونيّةً خارقةً ، وهكذا كلُّ الأنبياء ، طالبتهم أقوامهم بآيات خارقة ، حتى سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ؕ قُلْ إِنَّا نَزَّلْنَا آيَةً مِّن رَّبِّكَ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٧) ، ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيٰتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٩) ، طلب الأولون آيات مثل : قوم صالح ، طلبوا منه آية وجاءت الناقة ، وقال : ﴿ هٰذِهِ نَاقَةُ هَآءَا شَرِبْتُ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء: ١٥٥) .

وجاءت ناقة خلقها الله لهم فكفروا وعقروها ، ذبحوها ، الآيات لم تنفعهم ، ولذلك هي حُجّة يتذرّعون بها ، ويتكثّون عليها لتبرير جحودهم وعنادهم .

جواب الرسل على مطالب أقوامهم المُكذِّبين :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

الأنبياء ليس بيدهم السلطان ، وليس بيدهم القدرة بحيث يستطيعون لما يطلبه الأقوام من آيات حسيّة خارقة كونيّة : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (غافر: ٧٨) ، ولذلك ردّت عليهم الرسل : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ ، وهنا تأكيد ، أضاف كلمة ﴿ لَهُمْ ﴾ ، مثل آية الكهف ، حين قال سيدنا الخضر لسيدنا موسى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف: ٧٢) ، وبعد ما وقع في الخطأ الثاني قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف: ٧٥) .

وهنا قال : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ، نعم ، ما نحن إلا بشرٌ مثلكم ، نحن لا ندعي أننا ملائكة ولا خلق غير هذا الخلق الآدمي ، إن نحن إلا بشرٌ مثلكم نأكل ممّا تأكلون منه ، ونشرب ممّا تشربون ، نأكل الطعام ، ونمشي في الأسواق ، هكذا كلُّ الأنبياء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ

لَيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمَشُّوا فِي الْأَسْوَاقِ ﴿ (الفرقان: ٢٠) ، لأنهم قالوا : ﴿ مَا لِي
هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧) .

تمييز الرسل بالوحي :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

نحن بشرٌ مثلكم ، ميّزنا الله بشيء ، كما قال نبينا ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (الكهف: ١١٠) ، أنا واحدٌ مثلكم تماماً ، مُكوّن
من جسم وروح وعقل ، ومن طين صلصال ، ونفخة من روح الله ، أنا مثلكم أكلُ
وأشرب ، وأفرح وأحزن ، وأضحك وأبكي ، وأصح وأمرض ، وأحيا وسأمت .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، يَمُنُّ عليهم بأن ميّزهم بالوحي ،
واختارهم من بين خلقه لينزل عليهم وحيه ، هذا هو الذي ميّزهم به عن غيرهم من
البشر ، اصطفاهم الله تعالى لذلك .

النبوة اصطفاء من الله عز وجل :

فالنبوة ليست مكتسبة ، أي : ليس معناها أن الواحد - مثلاً - يجتهد في الطاعة ،
ويتعبّد لله ، ويقرأ الكتب ، ويتعلّم العلم ، لتنزل عليه رسالة !! لا . . النبوة هذه
اصطفاء ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٥) . وكما قال الناظم :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة^(١)

النبوة لا تُكتسب ، وإنما هي هبة من الله واصطفاء ، وقد خُتِمت بمحمد ﷺ :
﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ

(١) البيت من متن جوهرة التوحيد ، للعلامة الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله تعالى .

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ (الأحزاب: ٤٠) ، ولقد قال ﷺ : « أنا العاقبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ » ^(١) خُتِمَتِ النُّبُوءَاتُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ .

﴿ وَلَئِنْ آتَىٰكَ اللَّهُ يَمْنًا عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، يقول الرسل الكرام لأقوامهم : مَنْ آتَىٰ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْوَحْيِ ، وَأَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ لِنَدْعُوكُمْ إِلَىٰ سَاحَةِ اللَّهِ ، وَنَأْخُذَ بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ طَرِيقِ اللَّهِ ، نَأْخُذَ بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، إِلَىٰ مَثْوًى لَكُمْ إِلَىٰ رِضْوَانِهِ .

عدم ردِّ الرسل على جميع دعوى أقوامهم :

﴿ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

هم قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، فردُّوا على قضيَّةِ البشريَّةِ هذه بأنهم بشرٌ ، لا ننكر هذا ، ولكنَّا بشرٌ آتانا الله الوحي ، لم يردُّوا على قولهم : ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ، لأنَّها لا تستحقُّ الردَّ ؛ فماذا يعبد آباؤكم إلا الباطل ؟!

آباؤكم عبَدوا الأصنام والأحجار ، عبدوا ما لا يضرُّ ولا ينفع ، ولا يملك نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، ولكن ردُّوا على قولهم : ﴿ فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قالوا :

المعجزات من عند الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

نحن لا نستطيع أن نأتي بمعجزة ، لا نستطيع أن نُحيي الموتى ، لا نستطيع أن نبرئ الأكمَّة والأبرص ، إلا بإذن الله ، وأمره لنا ومشيئته .

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٤) ، والترمذي في أسماء النبي (٢٨٤٠) ، وابن حبان في التاريخ (٦٣١٣) ، عن جبير بن مطعم .

يقول الله تعالى لسيّدنا عيسى المسيح عليه السلام : ﴿ وَأُتِرْتُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحِيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩) ، ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ (المائدة: ١١٠) ، المسيح لا يملك شيئاً ، كلُّ هذا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ .

الاعتصام بالله والتوكل عليه :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

أمام هذا التَّحدِّي وأمام هذا التَّكْذِيب ليس هناك إلا ركنٌ ركين ، وَحِصْنٌ حصين يُلوذُ به صاحب الدعوة في مواجهة هذه التحديات ، هذا الركن الركين هو الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ ، أن يتوكَّل الإنسان على الله ، أن يجعل الله له وكيلاً في أموره كلّها أمام المواجهات ، أمام الجَبَرُوت من المُكذِّبين ، من الفراعنة ، والنَّمَارِذَة ، والقواريين ، والهوامين ، وأصحاب القوة ، وأصحاب السلطة ، ليس للإنسان ملجأ إلا الله عزَّ وجلَّ يتوكَّل عليه ، وهكذا قال المؤمنون : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . كما جاء في القرآن : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣) .

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾

وهكذا قال الرسل جميعاً : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ ، ما عذرنا في ألا نتوكَّل على الله؟! ما الذي يمنعنا أن نتوكَّل على الله؟! ما لنا ألا نتوكَّل على الله وهو الذي هَدَانَا سُبُلَنَا ، وأَنَارَ لَنَا الطَّرِيقَ^(١) .

(١) والمراد بالسُّبُل : سبل النجاة من كيد الكفار ، ومنها : سبيل إعداد المستطاع من القوة ، لمواجهة قوات الأعداء ، ومنها : التحول عن الدعوة العلنية إلى السرية ، إلى غير ذلك من سبل ، تجعل لهم مخارج بالفرج والنصر .

توكلُ الأنبياء على الله عز وجل :

كلُ الأنبياء توكلوا على الله ، سيدنا نوح قال لقومه : ﴿ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِعَايَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (يونس: ٧١) .

سيدنا هود حينما قالوا له : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ ، يظهر أنَّ بعض آلهتنا مسك بسوء ، فأصبت بالهوس أو بالخلل العقلي ، وأصبحت تدعو إلى نبذ الأصنام وإلى هذا الدين : ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١) من دونه ، فكيدوني جميعاً ﴾ أنتم وأصنامكم وآلهتكم ﴾ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ (٢) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٥، ٥٦) .

سيدنا إبراهيم والمؤمنون معه يقولون : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (المتحنة: ٤) .

سيدنا شعيب يقول : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٩) .

سيدنا موسى يقول لقومه : ﴿ يَنْقُومِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٣) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (يونس: ٨٤-٨٦) .

وهكذا رأينا سيدنا موسى حينما أتبعه فرعون بجنوده ، وقد وجد البحر أمامه وفرعون وجنوده من خلفه ، وقال له أصحابه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، أدركنا فرعون وجيشه ، ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) .

البحر من أمامه والعدو من خلفه ، ويقول : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، وقد هداه ربه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأُنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿الشعراء: ٦٣-٦٦﴾ . وهكذا رأينا الأنبياء جميعاً .

وهكذا عندما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، في الغار وقد وصل قومه في رحلة البحث عنه إلى الغار الذي يقيم فيه هو وصاحبه ، وقال مَنْ قَالَ مِنْهُمْ : محمد إما هبط إلى الأرض من هنا ، وإما صعد إلى السماء من هنا . لم يغادر هذا المكان . وقال أبو بكر وقد أخذه الخوف على رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو نَظَرَ أحدهم تحت قدميه لرآنا .

فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) »^(١) .

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) ، قالها موسى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) ، قالها محمد ﷺ .

هكذا هم الأنبياء يتحدثون من مشكاة واحدة ، ولذلك كلهم قالوا : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ ، هدى كلاً منا سبيله وطريقه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩) ، الله هداهم الطريق المستقيم ، ويسر لهم أمورهم .

الصبر والتوكل :

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

قَرَنَ الأنبياء عليهم السلام بين الصبر والتوكل : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٤٢) .

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٩) ، كما رواه أحمد (١٢) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦) ، عن أنس بن مالك .

كذا كان شأنُ الأنبياء جميعاً وشأنُ محمد ﷺ ، سيّد الصّابرين وسيّد المتوكّلين ،
القرآن أمره بالصبر في سبع عشرة آية ، ومنها : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾
(النحل: ١٢٧) ، ﴿ فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ (المعارج: ٥) ، ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (المدثر: ٧) ،
﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠) .

وأمره بالتوكل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: ٥٨) . ﴿ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ الَّذِي يَرْنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الشعراء: ٢١٧، ٢١٨) . ﴿ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل: ٧٩) ، أمر بالصبر والتوكل .

مواجهة الإيذاء بالصبر :

ولذلك أعلن الأنبياء توكلهم على الله ، وأعلنوا الصبر على الأذى ، ما دام
أقوامهم قد وقفوا منهم هذا الموقف ، معناه أنهم صَمَمُوا على إيذائهم ، فلا بد أن
يُصَمِّمُوا على الصبر ، أن يُواجهُوا الإيذاء بالصبر : ﴿ لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) .

هذه سُنَّةُ الله في أصحاب الدعوات جميعاً ، لا بد أن يُصيِّبهم الأذى ، وينالهم
العذاب ، وتنزل بساحتهم المحن من كلّ جانب ، ولا بد لهم أن يصبروا ، ليس هناك
إلا الصبر ، ولذلك قال الأنبياء : ﴿ وَلَتَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُوكُمْ ﴾ ، اللام للقسم ،
والنون للتوكيد ، ﴿ وَلَتَصْبِرَنَّ ﴾ ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَتَبْلُؤَنَّ ﴾ ، يعني
لا بد من البلاء ، قسم وتوكيد : ﴿ وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥) .

كلُّ هذا القَسَمُ ، فلا بد من البلاء ، ولا بد من صبر ، فإذا كان البلاء واقعاً
لا محالة ، فلا بد أن نواجهه بصبر مُؤَكَّد .

صَبْرُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْبَلَاءِ :

وهكذا صبر الأنبياء جميعاً : ﴿ وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، ولذلك كان الأنبياء جميعاً من أهل الصبر ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »^(١) . وأمثلة الناس ، وأفضل الناس هم أنبياء الله ورسله ، ولذلك كانوا أكثر الناس تعرضاً للبلاء ، وعلى قدر منزلتهم عند الله ابتلوا .

انظر كيف ابتلي إبراهيم عليه السلام ، ابتلي بالنار ، وُضِعَ في النار ليُحرق ، وابتلي بذبح ولده ، وابتلي بالهجرة من وطنه . .

وانظر كيف وجدنا يوسف عليه السلام يُبتلى من محنة إلى محنة ، ويخرج من محنة ليدخل في محنة أخرى : محنة إخوته ، ومحنة امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، كلُّ هذه محن بعد محن .

ووجدنا موسى عليه السلام يُبتلى بالمحن من أول ولادته : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (القصص: ٧) ، يقول الوحي لأم موسى : إذا خفت عليه ارميه في البحر : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ .

هكذا الأنبياء لم يولدوا وفي فم أحدهم ملعقة من ذهب ، كما يقال .

الأنبياء كلُّهم ابتلوا وأوذوا حينما واجهوا قومهم ، نالهم من الأذى الشيء الكثير .

النبي عليه الصلاة والسلام ، آذاه بعض الناس بكلمات شديدة فقال : « رحم الله أخي موسى ، لقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر »^(٢) . فقد أُوذِيَ من قومه أكثر مما أُوذِيَ من غيرهم ، حتى قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا

(١) سبق تخريجه ص (١١١) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الخمس (٣١٥٠) ، ومسلم في الزكاة (١٠٤٦) ، عن عبد الله ابن مسعود .

وَيَنْبَغِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿المائدة: ٢٥﴾ ، هؤلاء الناس أصحابي لا أملكهم ، انظر أي إيذاء أكثر من هذا !

كلُّ الأنبياء أودوا ، ولكنَّ الأنبياء جميعاً صبروا وصَابَروا ورَابَطُوا حتى نصرهم الله على أعدائهم ، كلُّ الأنبياء نُصِرُوا ، حتى ولو لم تنجح دعوتهم وتنتشر في الناس انتشاراً كبيراً .

كان أهم شيء أن الله عزَّ وجلَّ أهلك أعداءهم ونصرهم ونصر المؤمنين معهم ، هكذا سُنَّةُ الله عزَّ وجلَّ .

تدخلُ القدر الإلهي في مواجهة المُتسلِّطين :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

ماذا يفعل الضعفاء الذين لا يملكون القوة في مواجهة المتسلطين؟!

ماذا يفعل الإنسان العاجز ، الذي ليس معه سلاحٌ مادي أمام الإنسان المتجبر ، الذي لا يخشى خالقاً ولا يرحم مخلوقاً؟!

هنا يتدخلُ القَدَرُ الإلهي ، هنا يأتي قولُ الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۖ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

لا يظنُّ هؤلاء الطغاة والظلمة والمستكبرون في الأرض بغير الحق أن الأرض خلقت لهم ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون .

هناك مملكةٌ لها مَلِكٌ يحكمها . هذا الملك لا يمكن أن يدعَ الظلمة يستبدُّون بالخلق ويفعلون ما يشاؤون ، إنه يُمهلهم ولا يهملهم ، كما قال عزَّ وجل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَأُمْلِيَ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿

(الأعراف: ١٨٢، ١٨٣) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٤٥، ٤٤) ، وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، لها دلالة عميقة في هذا المقام : الله رب العالمين ، المدبّر لهذا الكون ، لا يمكن أن يدع المتألهين في الأرض يعملون ما أرادوا ، قد يُمهّلهم فترةً من الزمن ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . كما قال ﷺ : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢) ^(١) .

ولذلك نزل الوحي الإلهي أمام هذا الوعيد ، وهذا التهديد من هؤلاء القوم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ، لم يدعهم ربهم ، ولا يمكن أن يدعهم .

في الساعة الحاسمة يأتي لطف الله ، ويأتي قدر الله ، كما قال سيدنا موسى حينما وجد البحر أمامه ، والجند وراءه ، وقال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١) ، سيدر كنا فرعون ، ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: ٦٣) . عندما تشتد الأزمة تنفرج ، عندما يحلّو لك الليل وتشتد ظلماته ينبثق الفجر .

هلاك الظالمين :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾

الظالمون كانوا يؤكّدون : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بهذا التأكيد والتشديد . ولكن هناك تشديد وتوكيد ممن يملك أن يقول للشيء كن فيكون .

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣) ، عن أبي موسى الأشعري .

﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ، الظلم مُؤَذِّنٌ بهلاك أصحابه ، طبيعة الظلم أنه يُدَمِّر ، وطبيعة العدل أنه يُعَمِّر .

حتى قالوا : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة^(١) . لو كان أصحابها مسلمين يقولون : لا إله إلا الله ، ولكنهم ظَلَمَ طُغَاةُ جَبَّارُونَ فِي الْأَرْضِ ، يَنْتَهِكُونَ حُرْمَاتِ النَّاسِ ، وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ النَّاسِ ، وَيَسْتَبِيحُونَ أَمْوَالَهُمْ ، فَاللهُ يَهْلِكُ دَوْلَتَهُمُ الظَّالِمَةَ ، إِذَا الظُّلْمُ لَا بَقَاءَ لَهُ ، قَدْ يَسْتَمِرُّ زَمَنًا ، وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ نَهَايَةِ لَهُ ، نَهَايَتُهُ الْهَلَاكُ وَالْدمَارُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢) ، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩) ، لَا بَدَّ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الظُّلْمِ . إِنَّمَا مَتَى ؟ فَتَّةٌ مِنَ النَّاسِ تَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَوْعِدُ الْمُحَدَّدُ ، وَفَتَّةٌ تَسْتَبْعِدُ وَتِيَّاسٌ .

المؤمن لَا يِيَّاسُ أَبَدًا ، وَيَعْلَمُ أَنَّ ظُلْمَ الظَّالِمِ لَا يَدُومُ أَبَدًا ، لِأَنَّ عَدْلَ اللَّهِ يَأْبَى ذَلِكَ .

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الدُّوُلَ وَالْقِبَائِلَ وَالشُّعُوبَ الَّتِي ظَلَمَتْ .

هَؤُلَاءِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَظَلَمُوا رُسُلَهُمْ ، وَظَلَمُوا الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ ، وَظَلَمُوا الْحَقِيقَةَ حِينَمَا عَبْدُوا مَا لَا يَجُوزُ عِبَادَتُهُ ، حِينَمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، كَمَا قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ : ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) ، هَؤُلَاءِ ظَلَمُوا مِنْ أَكْثَرٍ مِنْ وَجْهِ .

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤٦/٢٨) .

سُنَنُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ :

﴿ وَلَنُنَسِّكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

هذا قانون من قوانين الله عز وجل ، وَسُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ التي لا تجد لها تبديلاً ، ولا تجد لها تحويلاً ، ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣) .

هلاك الظالمين المستكبرين المعتدين على حدود الله وحرُمات النَّاسِ هذه حقيقة ، وإسكان المؤمنين الأرض من بعدهم ، ﴿ وَلَنُنَسِّكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ (الأعراف: ١٣٧)

سُنَّةُ التَّدَاوُلِ :

هذا صنع الله عز وجل : تبديل الأدوار ، والدهر يومان : يومٌ لك ويومٌ عليك . سُنَّةٌ يَسْمِيهَا الْقُرْآنُ سُنَّةَ التَّدَاوُلِ ، أو مداولة الأيام بين الناس ، (دوام الحال من المحال) ، فبينما قومٌ مرتفعون إذا بهم ينخفضون ، وبينما قومٌ أقوياء إذا بهم يضعفون ، والعكس بالعكس .

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠) ، هذه سُنَّةُ التَّدَاوُلِ ، تداول الأيام بين الناس ، الله سبحانه غيَّرَ الأوضاع ، الذين كانوا يُهْدَدُونَ بالإخراج من الديار ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ، مع أَنَّ الْأَرْضَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ ، وإنما ادَّعَوْا أَنَّ الْأَرْضَ أَرْضُهُمْ هم ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا ، كَانَتْهُمْ دُخْلَاءَ عَلَيْهَا ، مع أَنَّهَا أَرْضُهُمْ مثلهم تماماً .

غَيَّرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْأَدْوَارَ ، فَأَصْبَحَ هَؤُلَاءِ هَلَكِي ، ولم يعودوا إلى هذه الأرض ، وَأَصْبَحَ الْمُهْدَدُونَ هم الْوَارِثِينَ ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٦﴾ وَنُفَكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ
وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا تَحْذَرُونَ ﴿٦٧﴾ (القصص: ٤-٦)

الله سبحانه يقول : ﴿ وَلَنُفَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، سكنى الأرض من
بعد أولئك الظلمة ، المتجبرين المهددين للمؤمنين المستضعفين .

الوارثون للأرض :

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾

مَنْ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ؟ هم الصَّالِحُونَ ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا
فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ،
فعبر الله سبحانه عن هؤلاء العباد الصالحين : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِي ﴾ ، لأنه لا يخاف مقام الله إلا الصَّالِحُونَ .

ولا يخاف مقام الله إلا الْمُتَّقُونَ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١) ، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦)

وراثَةُ الْأَرْضِ ، وسكنى الْأَرْضِ ، وَالتَّمَكُّنُ فِي الْأَرْضِ بعد هلاك الظالمين ، وبعد
أن تزول دولتهم ، ويزول سلطانهم هذا ، لِمَنْ خَافَ مَقَامَ اللَّهِ وَخَافَ وَعِيدَهُ ، أي :
هو للمؤمنين الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَسْتَحَقُّونَ أَنْ يَرِثُوا الْأَرْضَ ؛ لأنهم لا يريدون أن
يعيشوا فيها فساداً : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ﴾ (القصص: ٨٣) ،
لا يريدون أن يعلوا على الناس ويستكبروا عليهم .

هذا هو شأن المؤمنين الصالحين حينما يأتي لهم الملك والسلطان ، ليس لهم هدف شخصي في أنفسهم . بعض الناس إذا أتاه الملك ، أو مكَّن له في الأرض يريد أن يخفض ويرفع ، ويعزَّ ويذل ، وأن يستمتع بالشهوات ويكسر اللذات ، ما هكذا يريد المؤمنون .

المؤمنون قال الله فيهم : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (الحج: ٤١) ، ولذلك قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

لماذا ذكر الخوف هنا ولم يذكر الرجاء ؟

والقرآن عادة يزواج بين الخوف والرجاء : ﴿ تَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر: ٩) ، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (الإسراء: ٥٧) ، لأن سياق الآيات في حالة الطغيان والتماذي في معصية الله ، فالخوف هو العلاج ، والرجاء هنا ليس مطلوباً . كما يذكر الله سبحانه أحياناً النذر : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ (هود: ١٢) ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ الْتُّذُرُ ﴾ (القمر: ٤، ٥) ، لا ينفع التبشير هنا ، المطلوب هنا الإنذار والتخويف .

أهمية الخوف :

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ ، الخوف هو الذي يدفع الإنسان إلى عمل الخيرات وترك الشرور ، وإلى سلوك سبيل المؤمنين والابتعاد عن سبيل المكذبين ، سبيل الطغاة والشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة: ٨) ، ﴿ وَتَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٢١) .

الوعد والوعيد :

﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

أي : خاف وعيدي . يخافُ وعيدَ الله ، كما يرجو وعدَ الله ، الله يَعِدُ المؤمنين بالثُوبة في الدنيا والآخرة ، وبالْجَنَّاتِ والرَّضْوَانِ يومَ يَلْقَوْنَهُ ، ويُوعِدُ المسيئين والمُكذِّبين بعقوبته في الدنيا والآخرة ، وبناره الموقدة ، وبما أعدَّ لهم من عذابٍ شديد . هذا هو الوعيد .

الوعد غالباً ما يكون في الأمور المحبوبة ، والوعيدُ في الأمور المخوفة . وقد يذكر الوعد في هذا وهذا : ﴿ النَّارُ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٢) .

مَنْ الَّذِينَ طَلَبُوا النَّصْرَ وَالْفَصْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خُصُومِهِمْ ؟

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

ما معنى الاستفتاح؟ الاستفتاح : طلب الفتح أي : النصر ، أو طلب الفتح ، يعني : الفصل والحكم بيننا وبين أعدائنا .

مَنْ الَّذِي اسْتَفْتَحَ؟ هل الرسل الذين استفتحوا ، أي : طلبوا الفتح والنصر من الله على أقوامهم؟ احتمال . أم هم المُكذِّبون الذين قالوا لرسولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا ﴾ ، هم الذين طلبوا الفتح والنصر؟ احتمال أيضاً .

هؤلاء الكافرون كثيراً ما تسول لهم أنفسهم أنهم على الحق من طول ما أمهلهم الله عزَّ وجلَّ ، سَخِرُوا مِنَ الرِّسْلِ ، واستهزؤوا بدعوتهم ، وأذوهم وأذوا أصحابهم المؤمنين ، والله سبحانه وتعالى لا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ ، يَجْتَرِئُونَ عَلَى اللَّهِ وَيَحْلُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

إمهالُ الله للظالمين :

وهذا من عجائب عَظْمَةِ الله عزَّ وجلَّ ، فهذا أحياناً يُطْغِيهم ، ويُخَيِّلُ إليهم أنهم على حقٍّ .

ولذلك قال قوم نوح : ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (هود: ٣٢) ، وقال قوم شعيب : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨٧) ، وقال قوم محمد ﷺ : ﴿ اَللّٰهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢)

وقال أبو جهل يوم بدر : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأجِنه الغداة^(١) . أبو جهل يظنُّ أنه أوصل للرحم ، وأقرب إلى الحقِّ من محمد ﷺ^(٢) .

تزيين الأعمال السيئة للكافرين :

هؤلاء الناس يُخَيِّلُ إليهم أحياناً ، وَيُزَيِّنُ لهم سوء عملهم فيرونه حسناً : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ يَصِلُ مَن يَشَاءُ ﴾ (فاطر: ٨) ، ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٤) .

ترى الرجل على الباطل ويُخَيِّلُ إليه أنه على الحقِّ ، هذا ما نراه في حياتنا . بوش يحارب المسلمين ويعتقد أنه مبعوثُ العناية الإلهية . ويقول : ربِّي أمرني أن أحارب في أفغانستان ، ربِّي أمرني أن أحارب في العراق . كأنه نبيُّ يوحى إليه .

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦١) وقال مخرجه : صحيح ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٣٧) ، والحاكم في التفسير (٣٢٨/٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، عن عبد الله بن ثعلبة العنزي .

(٢) وقد أنزل الله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١٩) .

نتيجة الاستفتاح للكافرين :

هؤلاء الكافرون طلبوا الفتح على الرُّسل . وجاء الفتح - ليس على ما يظنون -
جاء الفتح من الله بنصر الحقِّ وخُذْلان الباطل ، بإزالة دولة الباطل ، وإقامة دولة
الحقِّ والإيمان .

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ، كان من نتائج هذا الاستفتاح : خيبةُ
كل جَبَّارٍ عنيدٍ ، خيبة هؤلاء الكفار .

والعلماء يقولون : هذا إظهار في مقام الإضمار . يريد أن يُبين لنا صفتهم ،
هؤلاء الذين خابوا هم الجبابرة المعاندون للحق .

الخيبة والخائبون :

الخيبة : هي فَوْتُ المطلوب ، أن لا يُدرك الإنسانُ ما يريد ، أو يتحقَّق له عكس
ما يريد .

يريد النصر فتأتي الهزيمة ، يريد النجاح فيأتي الفشل ، يريد الربح فتأتي
الخسارة . وهذه هي الخيبة كما يقولون : (أطال الغيبة وأتى بالخيبة)^(١) . خيبة الله
على هؤلاء الكفرة .

القرآن ذكر الخيبة لعدة أناس . قال : ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ (طه: ٦١) ، ﴿وَقَدْ
خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه: ١١١) ، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٥) ،
﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (الشمس: ١٠) .

(١) العقد الفريد (٦٥/٣) .

المتجبرون في الأرض :

من هو الجبار؟ المتَّصف بالجبروت ، وهذه من صفات الله وأسمائه : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ (الحشر: ٢٣) ، الجبروت والتكبر صفة مدح بالنسبة إلى الله عز وجل ، ولكنها صفة ذم بالنسبة للخلق ، الإنسان يُذم إذا كان جباراً .

الله جبار يظهر القوة والتَّعالي على الظلمة والطغاة ، ويأخذهم أخذاً أليماً شديداً ، هذا جبروت في محله ، وهو المتكبر على هؤلاء المتعاليين . وأما الإنسان فلا ينبغي له أن يكون جباراً ولا متكبراً .

الأنبياء ليسوا جبابرة :

ولذلك قال تعالى لرسوله : ﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: ٤٥) ، ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢) ، وقال عن سيدنا يحيى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (مریم: ١٤) ، وقال المسيح عليه السلام حينما أنطقه الله بالمهد صبيّاً : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مریم: ٣٢) ،

سيدنا موسى حينما استغاثه رجلٌ من شيعته على رجل من عدوه : ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (القصص: ١٥) ، ولما استغاثه الرجل مرةً أخرى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (القصص: ١٩) .

الجبروت في الأرض ليس من شأن المصلحين :

الجبابرة طُغاة مُسلِّطون على عباد الله . ولذلك حَكَمَ الله تعالى عليهم بالخبث :
﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

الراغب الأصبهاني يقول : الجبَّار في صفة الإنسان ، يقال لمن يجبر نقيصته ،
بإدعاء منزلة من العالي ، لا يستحقها^(١) .

الإنسان فيه عَيْبٌ ، يريد أن يستر العيب ، يظهر نفسه عظيمًا قويًا مقتدرًا ،
ولذلك تجد الجبابرة جميعًا عندهم نقائص خفية يعرفها المخالطون لهم .

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، الله سبحانه ذمَّ قوم هو ، فقال : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ
جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود: ٥٩) .

الوقوف في وجه الجبابرة المعاندين :

الله يذم الشعوب التي تتَّبَع الجبابرة وتسير في ركابها ، وتحرقُ البخور بين
أيديها ، كما شاعت بعض الأمثلة الشعبية على ألسنة الناس : (الذي يتزَّوج أُمِّي
أقول له : يا عمي . إذا كان لك عند الكلب حاجة فقل له : يا سيدي) . هذا هو
الذي يُضَيِّعُ الأُمم . يجب أن تقف في وَجْهِ الجبابرة ، وفي الحديث الشريف : « إذا
رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تُودَّع منهم »^(٢) .

(١) مفردات القرآن (١/١٦٧) ، دار القلم ، دمشق .

(٢) رواه أحمد (٦٧٨٤) وقال مخرجه : إسناده ضعيف لانقطاعه ، والحاكم في الأحكام
(٩٦/٤) وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبزار (٢٣٧٥) ، وقال الهيثمي في مجمع
الزوائد (٢٦٢/٧) : رواه أحمد والبزار بإسنادين ، ورجال أحد إسنادي البزار رجال
الصحيح ، وكذلك رجال أحمد ، إلا أنه وقع فيه في الأصل غلط ، فلهذا لم أذكره .

عذاب الجبارين المعاندين :

﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾

ولكن الشيء الذي يشربه أشد من العطش . يعاقب بما هو أشد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ﴾

لا يقدر على بلعه من شدة حرارته ومرارته .

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾

يأتيه الموت من يمين وشمال ، يأتيه من أمام ومن خلف ، يأتيه من فوق ومن تحت ، تأتيه أسباب الموت .

﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، لو مات لاستراح ، ولكن الله سبحانه لا يريد أن يريحه ، هذا الذي آذى رسله في الدنيا ، وآذى المؤمنين معهم ، هؤلاء الذين ارتكبوا الموبقات ، هؤلاء الذين اقترفوا السيئات ، هؤلاء الذين فعلوا الأفاعيل ، لا بد أن يجازيهم الله بما فعلوا : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩).

الآخرة لا موت فيها :

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، لأن الآخرة لا موت فيها : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ (الدخان: ٥٦) .

صَوَّرَ الرسول ﷺ الموت بمعنى من المعاني : « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فينادي مناد : يا أهل الجنة . فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار . فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ ، فيقول : وهل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت . ويا أهل النار خلود فلا

موت^(١). كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ ﴾ (الأعلى: ١١-١٣) ، لا هو ميت فيستريح ، ولا يحيا حياة تستحق أن تُعاش .

أوصاف العذاب في الآخرة :

﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

ينتظره فوق ذلك عذابٌ غليظ . الله سبحانه وصف عذاب الآخرة بأوصاف كما قدمنا ، فهو أليم ، وشديد ، ومهين ، وغليظ ، وكلُّها أوصافٌ لهذا العذاب بجهةٍ من الجهات ، نسأل الله أن يقينا عذابه ، وأن يجعلنا من أهل النعيم .

مثل أعمال الكفار :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

ثم قال تعالى ضاربًا المثل بأعمال الكفار ، الأعمال التي يمكن أن توضع في قائمة الخير .

قد يُطْعِمُ الكافر جائعًا ، قد يصل رحمًا ، قد يغيثُ ملهوفًا ، ويفدي أسيرًا ، قد يفعل خيرًا للناس ، قد يبذل بعض المال للناس .

ما نتيجة هذه الأعمال التي لم تؤسَّس على أساس مكين؟ ببيان ولكن بُنيَ على الرمال !!

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠) ، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٤٩) ، كما رواه أحمد (١١٠٦٦) ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٣١٦) ، عن أبي سعيد الخدري .

يقول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ^طأَعْمَلُهُمْ ﴾ .

القرآن يضرب الأمثال لتوضيح الحقائق :

المعقول يُظهره الله سبحانه في صورة المحسوس حتى يكون واضحاً بين الناس : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ^طوَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢٦١) ، ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ^طلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ (البقرة: ٢٦٤) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم: ٢٤) ، يضرب الله الأمثال ليوضح لنا الحقائق ، حتى تكون جليّة أمام الأعين ، واضحة أمام العقول .

فهنا يضرب لنا مثلاً بأعمال الكفار ، التي لم تُبْنَ على أساس إيماني بالله ، ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ^طأَعْمَلُهُمْ ﴾ ، كفروا بالله وعملوا أعمالاً طيِّبة .

ما مصير هذه الأعمال يوم القيامة ؟

يقول تعالى : ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ ، أصل الرماد : ما يكون من أثر احتراق الشيء ، والمقصود هنا : الرمل والتراب .

﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ، يوم من الأيام العاصفة ، التي تقتلع بها الأشجار ، وتقع أعمدة الكهرباء . في الأمس القريب حدث إعصار في لندن أوقع هلعاً هائلاً .

﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ، بعثر هذا الرماد وذراه في كل ناحية ، فجعلته هباءً منثوراً .

﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ ، لا يستطيع الكفار أن يحصلوا منه على أي شيء من الثواب ، كما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير في الريح على

إمساك شيء منه ، ﴿ ذَلِكْ ﴾ العمل على غير أساس ﴿ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ عن الصواب .

لماذا لا يكافئ الله الكافرين على أعمالهم الخيرة؟ لأنها فقدت شروط القبول .

شروط قبول العمل :

الأعمال لا تقبل عند الله إلا بشروط ، حتى العمل من المسلم ، المسلم لا يقبل عمله إلا بشرطين : الإخلاص لله ، وأن يكون عمله على السنة على المنهج الشرعي .

لما سئل أبو علي الفضيل بن عياض عن أحسن العمل ؟

قال : أحسن العمل : أخلصه وأصوبه .

قيل له : ما أخلصه وما أصوبه ؟

فقال : إن الله لا يقبل العمل ما لم يكن خالصاً صواباً ، فإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، والخالص إذا كان لله ، والصواب إذا كان على السنة^(١) . على المنهج الشرعي ، غير مبتدع ، لأن « كل بدعة ضلالة »^(٢) ، و « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه ، فهو رد »^(٣) ، هذا من المسلم .
ولذلك يقول الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨) .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧١٤٤) وقال مخرجه : حديث صحيح ورجاله ثقات ، ورواه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال : حديث صحيح ، وابن ماجه في المقدمة (٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود ، عن العرياض بن سارية .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأفضية (١٧١٨) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٦٠٣٣) وأبو داود في السنة (٤٦٠٦) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، عن عائشة .

إلى دنيا يُصيّبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه^(١) . اثنان هاجرا معاً ، ولكن تُقبل هجرة أحدهما ، ولا تُقبل هجرة الآخر ، هذا هجرته في سبيل الله ، وهذا هجرته لأنه كان يحبُّ واحدة هاجرت ، وقال : لماذا أبقي بعدها ، يجب أن أهاجر وراءها ، هذا هجرته في سبيل الله ، وهذا هجرته في سبيل المرأة .

مصير الأعمال التي افتقدت الإيمان :

وكذلك غير المسلم : لا يُقبل منه عملٌ ما لم يؤسَّس على الإيمان بالله ، أما إذا لم يؤمن بالله كيف ينتظر أن يدخل جنة الله؟

الله سبحانه يقول : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣) ، وفي سورة النور صورَ الله لنا عمل هؤلاء الكفار مصيره ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٠﴾ أَوْ كَظُلُمَةٍ فِي نَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظَلُمَتُوا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠، ٣٩) ، هذه أعمال افتقدت نور الإيمان .

شرط قبول العمل : أن يكون مؤسساً على الإيمان :

وشرط قبول العمل عند الله : أن يكون مؤسساً على الإيمان : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ ۖ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٤) ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٤) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، كما رواه أحمد في المسند (١٦٨) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١) ، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧) ، عن عمر .

فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿ (النساء: ١٢٤) ، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿ (الإسراء: ١٩) .

يجب أن يتحقق شرط الإيمان : الإيمان بالله خالق هذا الكون ، أما إذا لم يكن مُعترفًا به فكيف يكافئه ؟ كيف تطلب من مَلِكٍ أن يكافئك وأنت غير معترف بملكه ، تقول : إنه لا يستحقُ الملك لا يمكن أن يُكافئك . فالذي يكفر بالله لا يُنتظر منه أن يكافئه .

نتيجة أعمال الخير من الكافر :

هل معنى هذا أنه يضيع عمله الخير تمامًا؟ لا يكافأ عليه إطلاقًا؟!

أما في الآخرة فلا أثر لعمله هذا في دخول الجنة .

السيدة عائشة سألت رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ، فهل ذاك نافعه؟

قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يومًا : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »^(١) . لم يذكر ربّه في يوم من الأيام ، عمله غير مؤسس على الإيمان . لم يقل : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

يقول بعض الناس : الذي اخترع الكهرباء يدخل النار!! الذي اخترع الإنترنت يدخل النار؟

والجواب : هل عملها لله عز وجل أم لأمر دنيوي؟!

الإنترنت أصله - كما قرأت - عند وزارة الدفاع الأمريكية ، فاكشفت هذه الوسيلة من الاتصالات ، وكان خاصًا بالجيش الأمريكي ، ووزارة الدفاع ، ثم بدأت تُعمّمه على الناس شيئًا فشيئًا ، ولم تكن تريد خدمة البشرية .

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤) ، وأحمد (٢٤٦٢١) .

لا بد لقبول العمل الصالح : أن يكون القصد هو وَجْهَ الله عزَّ وجلَّ . وليس معنى هذا أنه لا يكافأ على عمل الخير إطلاقاً .

مكافأة الكفار على عمل الخير :

يُكافئ الله تعالى الكافر على عمل الخير في صورتين :
في الدنيا يُوسِّع له في الرزق ، ويُعطيه مَجْدًا وجاهًا وأولادًا ، ويُبارك له في صحته . وكلُّ هذه من المكافآت الدنيوية مقابل أعماله الخيرة .
وفي الآخرة لا يساويه بالظلمة المُعذِّبين .

هناك كَفَرَةٌ فقط ، وهناك كَفَرَةٌ وظَلَمَةٌ : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ (النساء: ١٦٨) ،
هناك كافر فقط ، وهناك كافر ظالم ، ليس مُجرَّد كافر ، فعَلَّ البَلَايا والمصائب بالبشر ، وقتل العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين من الناس ، فعلوا بشعوبهم ما فعلوا ، هؤلاء لا يكونون مثل غيرهم من الكفار .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨) ، ويقول الله سبحانه عن مؤمن آل فرعون : ﴿ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٥، ٤٦) ، فهناك عذابٌ شديد ، وهناك أشدُّ العذاب .

الكافر الذي فعل أفعالاً في ميزان الخير تنفع الناس يكافئه الله بأنه يُخَفِّف عنه من العذاب يوم القيامة ، هذا من فضل الله تبارك وتعالى ، ويسير مع القانون الذي يقول : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) ، فهذا الخير الذي فعله الكافر رأى نتيجته في الدنيا ، ورأى نتيجته بوجه ما في الآخرة .

* * *